لَسْتُ سارِقَة

تأليف: د. عبير محمد أنور
رسم: هيام صفوت

عِنْدَ عَوْدَتِها مِنَ المَدْرَسَة، رَكَضَتْ «ريم» إلى غُرْفَتِها مُدَّعِيَةً أنَّ صُداعًا ألَمَّ بِها، وأسْدَلَتِ السَّتائِر، وحاوَلَتْ أنْ تُغْمِضَ عَيْنَيْها لَكِنْ مِنْ دونِ جَدْوى.

قالَتْ في نَفْسِها: «لَمْ أكُنْ أعْلَمُ أنَّ الأُمورَ سَتَتَطَوَّرُ هَكَذا! كُنْتُ أرْغَبُ فَقَطْ في رُؤْيَتِها، ولَمْ تَكُنْ لَدَيَّ أيُّ نِيَّةٍ في سَرِقَتِها. أنا أعْلَمُ جَيِّدًا أنَّ السَّرِقَةَ حَرامٌ».

ثُمَّ قالَتْ بِصَوْتٍ خافِتٍ: «لَسْتُ سارِقَةً».

في يَدِها، لا تَزالُ تَحْتَفِظُ بِالمِقْلَمَةِ الخاصَّةِ بِـ«نوران»، صَديقَتِها في الصَّفّ.

هِيَ حائِرَةٌ، لا تَدْري ماذا تَفْعَل؟

أسْنَدَتْ رَأْسَها إلى حافَّةِ سَريرِها وبَدَأَتْ تَسْتَعيدُ ما حَدَثَ لَها ذَلِكَ اليَوْم.

رُنَّ الجَرَسُ مُعْلِنًا انْتِهاءَ الحِصَّةِ الثّالِثَة، فَغادَرَتْ «ريم» وزَميلاتُها الصَّفَّ لِلاسْتِمْتاعِ بِاللَّعِبِ مَعًا في فِناءِ المَدْرَسَةِ الواسِع.

كانَتْ «ريم» تُريدُ شِراءَ حَلْوى مِنْ دُكّانِ المَدْرَسَة. تَذَكَّرَتْ أنَّها نَسِيَتْ مَصْروفَها في حَقيبَتِها المَدْرَسِيَّة.

عِنْدَما أخَذَتْ «ريم» مَصْروفَها مِنْ حَقيبَتِها وهَمَّتْ بِالانْصِراف، اصْطَدَمَتْ قَدَمُها بِحَقيبَةِ «نوران» وسَقَطَتْ عَلى الأرْض. فَانْحَنَتْ وبَدَأَتْ تَجْمَعُ ما بَعْثَرَتْه، فَلَمَسَتْ يَدُها المِقْلَمَةَ الجَديدَة.

لَمْ تَكُنِ المَرَّةُ الأولى الَّتي تَرى فيها «ريم» هَذِهِ المِقْلَمَة، فَقَدْ شاهَدَتْها مِنْ قَبْل في يَدِ «نوران»، وتَمَنَّتْ أنْ يَكونَ لَدَيْها مِثْلُها. لَكِنَّها فَقَدَتِ الأمَلَ في تَحْقيقِ هَذِهِ الأُمْنِيَةِ

الصَّغيرَة، عِنْدَما عَرَفَتْ أنَّ خالَةَ «نوران» أحْضَرَتْها لَها مِنْ «لُنْدُن» حَيْثُ تَعْمَل.

قالَتْ «ريم» في سِرِّها آنَذاك: «ومِنْ أيْنَ لي بِقَريبٍ يَعْمَلُ في لُنْدُن كَيْ يُحْضِرَ لي مِثْلَها؟!».

بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ، تَفَحَّصَتْ «ريم» المِقْلَمَة، وعِنْدَما أحَسَّتْ بِوَقْعِ أقْدامٍ خَلْفَها، دَفَعَتْها في جَيْبِ حَقيبَتِها السِّرِّيّ، وغادَرَتِ الصَّفَّ مُسْرِعَةً.

لَمْ تَسْتَمْتِعْ «ريم» بِالفُرْصَةِ كَما كانَتْ تَأْمَل. فَقَلَقُها وضيقُها الشَّديدُ مِمّا فَعَلَت، جَعَلَها تَنْسَحِبُ مِنَ المَلْعَب، وفَضَّلَتْ أنْ تَجْلِسَ وَحْدَها لِتُفَكِّرَ في كَيْفِيَّةِ التَّغَلُّبِ عَلى هَذِهِ المُشْكِلَةِ السَّخيفَة!

اقْتَرَبَتْ «نوران» مِنْ «ريم»، لاعَبَتْ خُصَلَ شَعْرِها، وبِحُبٍّ سَألَتْها: «ريم، لِماذا تَجْلِسينَ وَحَدَكِ؟ هَلْ ضايَقَكِ أحَدٌ؟».

في تِلْكَ اللَّحْظَة، أحَسَّتْ «ريم» أنَّ الكَلِماتِ الْتَصَقَتْ في حَلْقِها، ولَمْ تَعْرِفْ كَيْفَ تَنْطُق.

هَزَّتْها «نوران» بِرِفْقٍ وعادَتْ تَسْألُها مِنْ جَديدٍ: «ريم، هَلْ أنْتِ مَريضَةٌ؟».

هَزَّتْ «ريم» رَأْسَها. الأمْرُ الوَحيدُ الَّذي كانَ في إمْكانِها فِعْلُهُ في هَذِهِ اللَّحْظَة، البُكاء. انْسابَتْ دُموعُها في صَمْتٍ، ولَكِنَّها لَمْ تَهْدَأ...

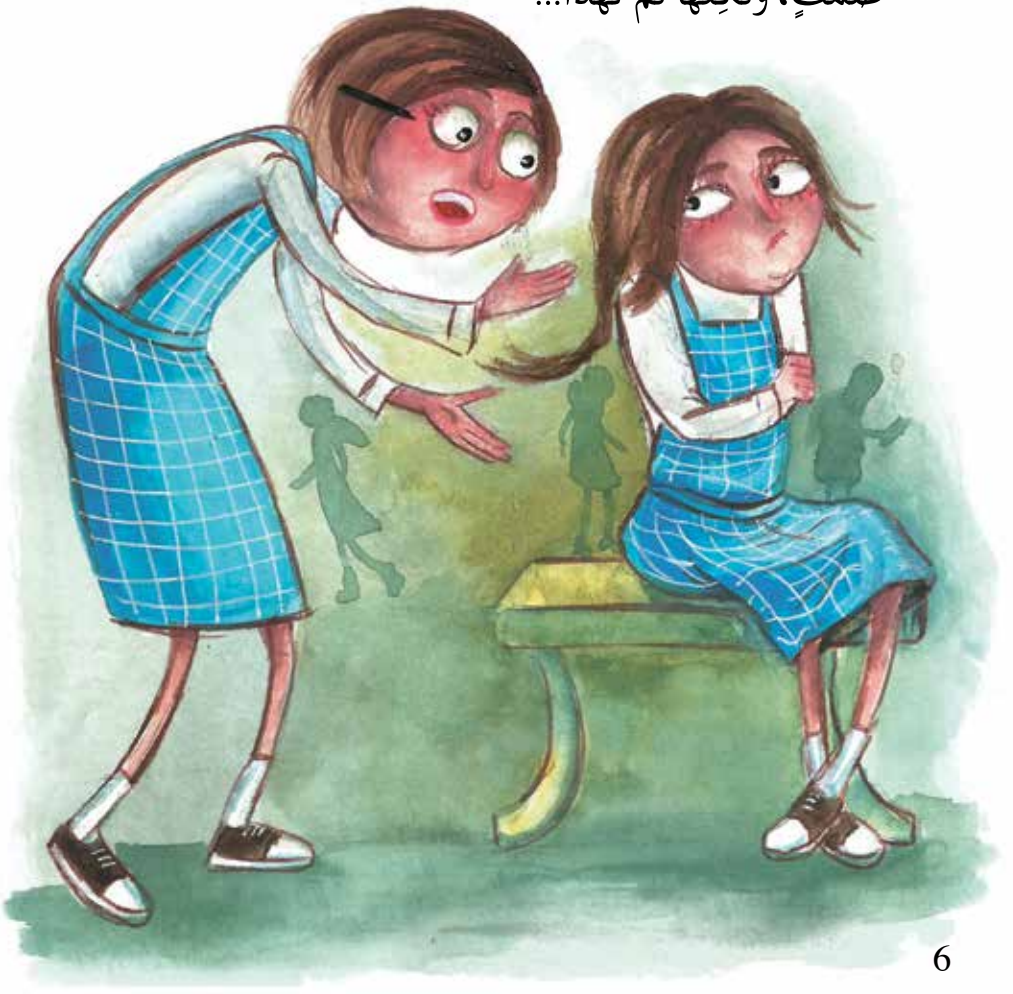

طَوالَ مُدَّةِ الحِصَصِ التّالِيَة، ظَلَّتْ «ريم» مُمْسِكَةً بِحَقيبَتِها بِشَكْلٍ لافِتٍ لِلنَّظَر، خَوْفًا مِنْ أنْ يَكْتَشِفَ الجَميعُ أنَّها تَحْتَفِظُ بِداخِلِها بِمِقْلَمَةِ «نوران».

وحَدَثَ ما كانَتْ تَخْشاه!

طَلَبَتِ المُعَلِّمَةُ إلى التَّلامِذَةِ نَقْلَ ما كَتَبَتْهُ عَلى اللَّوْحِ إلى دَفاتِرِهِم، فَفَتَحَتْ «نوران» حَقيبَتَها، وبَدَأَتْ تَبْحَثُ عَنِ المِقْلَمَة، لَكِنْ مِنْ دونِ جَدْوى.

فَأعارَتْها «لَمْياء» قَلَمًا حَتّى لا يَفوتَها شَرْحُ المُعَلِّمَة.

«حَمْدًا لله»، هَمَسَتْ «ريم» في سِرِّها.

عِنْدَما عاوَدَتْ «نوران» البَحْثَ عَنِ المِقْلَمَة، قالَتْ لَها «آلاء»: «أنا لَمْ أرَها مَعَكِ اليَوْم، رُبَّما نَسَيْتِها في المَنْزِل».

قالَتْ «نوران» مُنْدَهِشَةً: «أعْتَقِدُ أَنَّني وَضَعْتُها أمْسِ في الحَقيبَة».

فَتَدَخَّلَتْ «نُهى» قائِلَةً: «أحْيانًا نَتَخَيَّلُ أَنَّنا قُمْنا بِأفْعالٍ مُعَيَّنَةٍ لَمْ تَحْدُث... هَذا يَحْدُثُ مَعي كَثيرًا».

وبَدَأَتْ تَسْرُدُ بِمَرَحٍ ما حَدَثَ لَها قَبْلَ أيّامٍ: «طَلَبَتْ إلَيَّ أُمّي أنْ أُحْضِرَ لَها كوبَ ماءٍ كَيْ تَتَناوَلَ الدَّواء، وتَخَيَّلَتْ نَفْسي أَنَّني أحْضَرْتُهُ لَها فِعْلًا، حَتّى سَمِعْتُها تُعاوِدُ طَلَبَها غاضِبَةً، فَأدْرَكْتُ حَقيقَةَ الأمْر».

ضَحِكَ الجَميعُ ما عَدا «ريم».

عِنْدَ بابِ المَدْرَسَة، وَدَّعَتْ «نوران» صَديقَتَها «ريم» قائِلَةً: «يَنْبَغي أنْ تَذْهَبي إلى الطَّبيب، أنْتِ شاحِبَةٌ ويَداكِ بارِدَتان. سَأتَّصِلُ بِكِ مَساءً لِلاطْمِئْنانِ إلَيْكِ».

وما لاحَظَتْهُ «نوران»، لاحَظَتْهُ والِدَةُ «ريم».

قالَتِ الأُمُّ وهِيَ تَتَحَسَّسُ جَبينَ ابْنَتِها: «ما بِكِ يا حَبيبَتي؟ وَجْهُكِ شاحِبٌ».

عادَتْ دُموعُ «ريم» تَنْهَمِرُ مُجَدَّدًا. فَهِي لا تَدْري ماذا تَفْعَل، وقالَتْ في سِرِّها: «لَمْ أكُنْ أقْصِدُ سَرِقَتَها. ولَمْ يَخْطُرْ ذَلِكَ في بالي يَوْمًا!».

كانَتْ جَدَّتُها تُراقِبُها مِنْ خَلْفِ نَظّارَتِها، لَكِنَّها لَمْ تَتَكَلَّم. وعِنْدَما غادَرَتْ والِدَتُها الغُرْفَة، اقْتَرَبَتْ جَدَّتُها مِنْها، وقالَتْ لَها: «هَيّا، اِحْكي لِجَدَّتِكِ ما بِكِ».

فَأشاحَتْ وَجْهَها بَعيدًا مِنْها، وقالَتْ وهِيَ تَعْبَثُ بِأزْرارِ ثَوْبِها: «لا شَيْء يا جَدَّتي. صُداعٌ بَسيطٌ».

اقْتَرَبَتِ الجَدَّةُ أكْثَر، ونَظَرَتْ إلى «ريم» وقالَتْ لَها بِحَنانٍ: «إنَّني أعْرِفُكِ جَيِّدًا، أنْتِ لا تُجيدينَ الكَذِب».

عادَتْ «ريم» إلى البُكاءِ لِلمَرَّةِ الثّالِثَة.

فَقالَتِ الجَدَّة: «لِكُلِّ مُشْكِلَةٍ حَلٌّ».

بَدَأَتْ «ريم» تَرْتَعِش، فَسَحَبَتْ شالَها الصّوفِيَّ ولَفَّتْهُ عَلَيْها. وعادَتْ جَدَّتُها تَحُثُّها عَلى الكَلام: «هَيّا ياحَبيبَتي، أخْبِريني، أعِدُكِ أنْ يَظَلَّ الأمْرُ سِرًّا بَيْنَنا».

قالَتْ «ريم» بِخَجَلٍ: «أخْشى أنْ تُغَيِّري رَأْيَكِ فِيّ».

قالَتِ الجَدَّة: «أنْتِ حَفيدَتي الوَحيدَة، وسَأظَلُّ أُحِبُّكِ مَهْما حَدَث».

فَأسْرَعَتْ «ريم» وأغْلَقَتْ بابَ الغُرْفَة. وبِتَرَدُّدٍ، أخْرَجَتِ المِقْلَمَةَ مِنْ حَقيبَتِها وناوَلَتْها لِجَدَّتِها.

قالَتِ الجَدَّةُ وهِيَ تَتَفَحَّصُها: «إنَّها جَميلَةٌ جِدًا! مُبارَكٌ عَلَيْكِ».

ـ هِيَ لَيْسَتْ لي!

ـ ولِماذا إذًا تَحْتَفِظينَ بِها؟

ـ هَذِهِ هِيَ المُشْكِلَةُ يا جَدَّتي!

قالَتِ الجَدَّةُ بِفَزَعٍ: «أسَرَقْتِها يا ريم؟!».

ـ أُقْسِمَ إنَّها سَقَطَتْ عَلى الأرْضِ أمامي صُدْفَةً، وكُنْتُ أتَأمَّلُها فَقَط.

ـ ومَنِ الَّذي وَضَعَها في حَقيبَتِكِ؟

ـ سَمِعْتُ وَقْعَ أقْدامٍ خَلْفي، وخَشيتُ أنْ يَظُنَّ أحَدٌ أنَّني سَرَقْتُها، فَوَضَعْتُها بِسُرْعَةٍ ومِنْ دونِ قَصْدٍ في حَقيبَتي.

ـ يَنْبَغي أنْ تَعْتَرِفي لِصَديقَتِكِ بِالحَقيقَة، وتُعيديها إلَيْها فَوْرًا كَيْ لا تَتَعَقَّدَ المَسْألَة.

ـ أخْشى أنْ تَظُنَّ «نوران» أنَّني سَرَقْتُها، بِخاصَّةٍ أنَّني الْتَزَمْتُ الصَّمْتُ عِنْدَما كانَتْ تَبْحَثُ عَنْها في الصَّفّ.

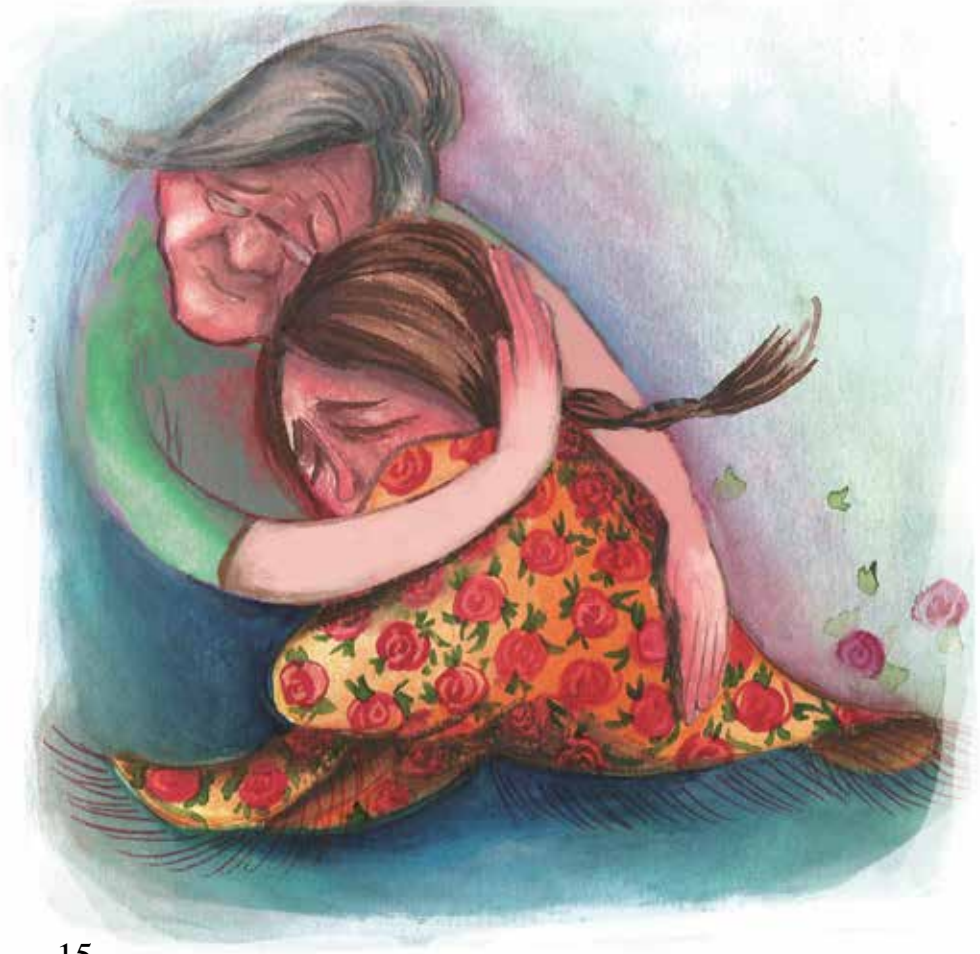

ـ «نوران» صَديقَتُكِ وجارَتُكِ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَويلَةٍ، وهِيَ تَعْرِفُكِ جَيِّدًا.

ـ أشْعُرُ بِالخَجَلِ الشَّديدِ مِنْ نَفْسي.

ـ إعْجابُكِ بِشَيْءٍ جَميلٍ يَخُصُّ غَيْرَكِ لَيْسَ جَريمَةً. فَجَميعُنا بَشَرٌ، وأحْيانًا تَنْتابُنا لَحَظاتُ ضَعْفٍ.

ثُمَّ أضافَتِ الجَدَّة: «عَلَيْنا أنْ نُحاولَ مُعالَجَةَ المُشْكِلَةِ بِحِكْمَةٍ بَدَلًا مِنَ التَّرْكيزِ عَلى قَلَقِكِ وخَجَلِكِ».

ـ سَتَتَّصِلُ بي «نوران» اللَّيْلَة.

ـ إذًا، أخْبِريها بِالحَقيقَة.

ـ لا... لَنْ أسْتَطيع.

ـ وما البَديل؟

الْتَزَمَتْ «ريم» الصَّمْت. فَقالَتِ الجَدَّة: «هُناكَ بَدائِلُ عِدَّةٌ: أنْ تَحْتَفِظي بِها وتَتَحَمَّلينَ عَذابَ ضَميرِكِ. أنْ تَتَخَلَّصي مِنْها فَوْرًا ويَظَلُّ الأمْرُ سِرًّا بَيْنَنا، وهَذا أيْضًا لَنْ يُخَلِّصَكِ مِنْ عَذابِ الضَّمير. أوْ أنْ تَذْهَبي غَدًا إلى المَدْرَسَةِ باكِرًا، وتَضَعي المِقْلَمَةَ عَلى مَقْعَدِ نوران».

ـ لَقَدْ فَكَّرْتُ في الاحْتِمالِ الأخير.

ـ لَكِن، هُناكَ احْتِمالٌ أنْ يَراكِ أحَدٌ ويُخْبِرَ الجَميعَ بِما حَدَث. وفي تِلْكَ الحالَة، سَيَكونُ مَوْقِفُكِ أسْوَأَ بِكَثيرٍ.

ـ إذًا، لا مَفَرَّ مِنْ قَوْلِ الحَقيقَة.

ـ في الصِّدْقِ نَجاةٌ يا ابْنَتي. هَيّا نُمَثِّلُ مَعًا ما يَنْبَغي لَكِ فِعْلُه.

ثُمَّ قالَتِ الجَدَّةُ مُبْتَسِمَةً: «أنا نوران وأنْتِ ريم. هَيّا أخْبِريني الحَقيقَة».

بَدَأَتْ «ريم» تَتَلَعْثَمُ في الكَلام، وبَدا كَلامُها غَيْرَ واضِحٍ. فَقالَتِ الجَدَّة: «خُذي نَفَسًا عَميقًا، ورَدِّدي في سِرِّكِ أنا لَسْتُ سارِقَةً».

أخَذَتْ «ريم» نَفَسًا عَميقًا، وراحَتْ تُرَدِّدُ ما قالَتْهُ لَها جَدَّتُها. قالَتِ الجَدَّة: «يَنْبَغي أنْ يَكونَ صَوْتُكِ مَسْموعًا، وكَلِماتُكِ واضِحَةً. ما رَأْيُكِ في كِتابَةِ ما تَوَدّينَ قَوْلَه؟».

ـ فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ!

وبَدَأَتْ «ريم» تَصوغُ ما تَوَدُّ قَوْلَه، وتَعْرُضُهُ عَلى جَدَّتِها فَتُعَدِّلُهُ لَها. وظَلّتا هَكَذا حَتّى وَصَلَتا إلى أفْضَلِ صِياغَةٍ.

قالَتِ الجَدَّة: «الآن، عَرَفْتِ كَيْفَ تَحْتَفِظينَ بِهُدوئِكِ، كَما عَرَفْتِ ما سَتَقولينَه».

ـ نَعَمْ يا جَدَّتي.

ـ سَنَجْلِسُ الآن، ونَنْتَظِرُ اتِّصالَ نوران.

قامَتْ «ريم» وفَتَحَتْ خِزانَتَها، وقالَتْ لِجَدَّتِها: «لَنْ أَنْتَظِر، سَأَذْهَبُ إلى بَيْتِها الآنَ وأُعيدُ لَها المِقْلَمَة، لَمْ يَعُدْ هُناكَ مُبَرِّرٌ لِبَقائِها مَعي فَتْرةً أَطْوَل».